

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦ - سُورَةُ النَّحْلِ

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى^(١) (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواص عباده، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب . يحمل كلماته على مواضع الشرف ، وعلى المعاني المثمرة ، وعلى التصرفات العالمة . مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية . وهذا أكل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده . قاله المهايمي .

وقال بعضهم : تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهم . ليتفطن الغرض الذي يرمى إليه . ك(الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعي وما يَنْجِمُ عنه من مصالح الأمور العامة، والحديد لمنافعه العظيمة . و(النحل) . و(المنكبوت) . و(النمل) . لتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع . وهكذا . وسيأتي طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته في هذه السورة . وهي مكية . واستثنى ابن عباس آخرها . وعن الشعبي^(٢) (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيات وعن الشعبي^(٣) : (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ) الآيات . وآياتها مائة وثمان وعشرون .

وعن قتادة : تسمى سورة النعم . وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده .

(١) [١٦ / النحل / ٦٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٦] . (٣) [١٦ / النحل / ٤١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحٰنَكَو وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ)
 «أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ» تقرر في غير ما آية ،
 أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم . كما فعل يوم بدر ،
 استهزاء وتسكديباً بالوعد . فقيل لهم (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ) أى ما توعدونه مما ذكر . والتعبير
 عنه (أمر الله) للتفخيم والتهويل . وللإيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه ، منوط بحكمه النافذ
 وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع .
 أو عن إتيان مبادئه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات . والآية كقوله
 تعالى (١) : (أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وقوله (٢) (أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ
 وَأُنشِقَ الْقَمَرُ) وقوله (٣) : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .
 وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَمَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم
 معه ماسواه ، من الأوثان والأنداد ، الذى أفضى بهم إلى الاستهزاء والعداء ، واعتقاد أنها
 شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)
 «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ

(١) [٢١ / الأنبياء / ١] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ « رَدُّ لاسْتِعْمَادِهِمُ النَّبُوَّةَ ، بَأَن ذلِكَ سَنَّةُ لَهُ تَعَالَى . وَلِذَا ذَكَرَ صِيغَةَ الاستِقْبَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (١) « يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وَقَوْلِهِ (٢) « اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ » وَالرُّوحُ هُوَ الْوَحْيُ ، الَّذِي مِنْ جَمَلَتِهِ الْقُرْآنُ . لِقَوْلِهِ تَعَالَى (٣) « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالرُّوحِ عَلَى نَهْجِ الاستِعَارَةِ . فَإِنَّهُ يَجِي الْقُلُوبَ الْمَيَّتَةَ بِالْجَهْلِ وَ(مِنْ أَمْرِهِ) بَيَانٌ لِلرُّوحِ ، أَوْ حَالٍ مِنْهُ ، أَوْ صِفَةٍ ، أَوْ مَتَعَلِقٍ بِهِ (يَنْزِلُ) . وَ(مِنِ) لِلْسَّبِيحَةِ وَ(أَنْ أُنذِرُوا) بَدَلٌ مِنَ الرُّوحِ . أَيْ أَخْبَرُوهُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّقْوَى . فِقَوْلِهِ (فَاتَّقُونِ) مِنْ جَمَلَةِ الْمُنْذِرِ بِهِ . أَوْ هُوَ خُطَابٌ لِلْمُسْتَعْجَلِينَ ، عَلَى طَرِيقَةِ الْإِلْتِمَاتِ . وَالفَاءُ فَصِيحَةٌ أَيْ إِذَا كَانَتْ سَنَّتُهُ تَعَالَى ذلِكَ ، فَاتَّقُونِ ، بِمَا يَنْفَائِهِ مِنَ الْإِشْرَاقِ وَفُرُوعِهِ ، مِنَ الاستِعْجَالِ .

قال الرخشمريّ: ثم دل على وحدانيته ، وأنه لا إله إلا هو ، بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره ، من خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وما يصلحه ، وما لا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه ، وجر أثقاله وسائر حاجاته . وخلق ملا يملكون من أصناف خلائقه . ومثله متعال عن أن يشرك به غيره ، بقوله سبحانه :

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٧٥] .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

[٥] (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٦] (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة كما تقدم « تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * »
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ « أى مهينة ضعيفة » فَإِذَا هُوَ « بعد تكامله بشراً » خَصِيمٌ مُّبِينٌ «
 أى مخاصم لخالفه مجادل ، يجحد واحدنيته ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبدا
 لا ضدا « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ » أى لمصالحكم وهى الأزواج الثمانية المفصلة فى
 سورة الأنعام .

قال الزمخشريّ : وأكثر ما تقع على الإبل .

« فِيهَا دِفْءٌ » أى ما يدفىء أى يسخن به من صوف أو وبر أو شعر ، فيقى البرد « وَمَنْفَعٌ »
 أى من نسلها ودرها وركوب ظهرها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ » أى زينة
 « حِينَ تُرِيحُونَ » أى تردونها من سراعيها إلى مرايحها (بضم الميم) وهو مقرها فى دور
 أهلها بالعشى « وَحِينَ تَسْرَحُونَ » أى تخرجونها بالغداة إلى المراعى .

قال الزمخشريّ : من الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها . لأنه من أغراض أصحاب
 المواشى . بل هو من معازمها . لأن الرعيان ، إذا روجوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة ،
 فزيت يراحتها وتسريحها الألفية ، وتجاوب فيها الثناء والرغاء ، أنست أهلها وفرحت
 أربابها . وأجلمهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه (١)
 (لَتَرَنَّ كِبْوَهَا وَزِينَتَهُ) (٢) (يُوْرِي سَوْءًا تَكْتُمُ وَرِيْشًا) .

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . انتهى .
ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ،
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٨] (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ » أى أحمالكم « إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »
بكسر الشين المعجمة وفتحها . قراءتان وهما لغتان في معنى (المشقة) أى لم تكونوا بالنيه
بأنفسكم إلا بمجهود ومشقة ، فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم « إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »
أى حيث سخرها لنا فعمركم . ثم أشار إلى ما هو أتم في دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال
« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ » عطف على (الأنعام) « لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » عطف محل
(لتركبوها) فهى مفعول له أو مصدر محذوف . أى وتزينوا بها زينة . أو مصدر واقع
موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله . أى متزينين بها . أو متزيننا بها . وسر التصريح
باللام في المعطوف عليه ، دون المعطوف ، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلي في
الأصناف ، هو الركوب . وأما التزين بها فامر تابع غير مقصود قصد الركوب . فافتقر
المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل . تنبها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين
منها تنبها على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا في (الانتصاف) .

تنبيه :

استدل بهذه الآية الفائلون بتحريم لحوم الخيل . قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على

أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا: ويؤيد ذلك أفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل . قالوا: ولو كان أكل الخيل جائزاً ، لكان ذكره والامتنانُ به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوزون لأكلها ، بأنه لا حجة في التعليل بالركوب ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعتها ، لا ينافي غيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها ، عام خبير . وقد قدمنا أن هذه السورة مكية . والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل . فلو سلمنا أن هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم ، لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا لاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال . وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث . منها ما في الصحيحين ^(١) وغيرهما ، من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة والترمذي ^(٢) وصححه والنسائي ^(٣) وغيرهم من جابر قال : أطمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية . وأخرج أبو داود

(١) أخرجه البخاري في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٤ - باب النحر والذبح ،

حديث ٢٢٠٢ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٣٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٥ - باب ماجاء في أكل لحوم الخيل .

(٣) أخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٢٩ - باب الإذن في أكل

لحوم الخيل .

نحوه . وثبت أيضاً في الصحيحين^(١) من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم
الحمر الأهلية ، وأذن في الخيل .

وأما ما أخرجه أبو داود^(٢) والنسائي^(٣) وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى
رسول الله ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففي
إسناده صالح بن يحيى . فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحل . على
أنه يمكن أن يكون متقدماً على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا في (فتح البيان) .
وفي (الإكليل) : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، ردّاً على الحنفية في قولهم
بوجوب الزكاة فيها . أى الخيل . وقوله تعالى :

« وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من المخلوقات فى القفار والبحار . وصيغة الاستقبال
للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » .

فى الآية فوائد :

الأولى - قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه فى السبل الحسية ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٨ - باب غزوة خيبر ، حديث ١٩٠٩

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٢٥ - باب فى أكل لحوم الخيل ،

حديث رقم ٣٧٨٨ . (٣) أخرجه النسائى فى : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٣٠ -

باب تحريم أكل لحوم الخيل .

نَبَّهَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسِيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (١) : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) وَقَالَ تَعَالَى (٢) (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تِكُمْ وَرِيشًا ، وَرِيشًا التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) .

وَمَا ذَكَرَ تَعَالَى ، فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَلْبَغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ ، وَتَحْمَلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَةِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ . فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مُوصَلَةٌ إِلَيْهِ . فَقَالَ (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (٣) : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْتَرِقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (٤) (هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ) انْتَهَى . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) .

الثَّانِيَّةُ - قَالَ أَبُو السُّعُودِ : (الْقَصْدُ) مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ . يُقَالُ سَبِيلٌ قَصْدٌ وَقَاصِدٌ . أَيُّ مُسْتَقِيمٍ . عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ أَوْ عَلَى نَهْجِ إِسْنَادِ حَالِ سَالِكِهِ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَقْصِدُ الْوَجْهَ الَّذِي يُؤْمَهُ السَّالِكُ لَا يَمْدُلُ عَنْهُ . أَيُّ : حَقٌّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِمَوْجِبِ رَحْمَتِهِ وَوَعْدِهِ الْمَحْتَمُومِ ، بَيَانِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصَلِ لِمَنْ يَسْلُكُهُ إِلَى الْحَقِّ ، الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ . بِنَصْبِ الْأَدَلَّةِ وَإِرْسَالِ الرَّسْلِ وَإِزَالِ الْكُتُبِ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ . أَوْ مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْإِقَامَةِ وَالتَّعْدِيلِ . قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ . أَيُّ عَلَيْهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، تَقْوِيمًا وَتَعْدِيلًا . أَيُّ : جَعَلَهَا بِحَيْثُ يَصِلُ سَالِكُهَا إِلَى الْحَقِّ . لَكِنِ لَا بَعْدَ مَا كَانَتْ فِي نَفْسِهَا مُنْحَرِفَةً عَنْهُ ، بَلْ إِبْدَاعًا بِإِبْدَاءِ كَذَلِكَ عَلَى نَهْجِ (سُبْحَانَ مَنْ صَغَرَ الْبَعُوضُ . وَكَبَّرَ الْفَيْلُ) وَحَقِيقَتُهُ رَاجِعَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ نَصْبِ الْأَدَلَّةِ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ حَيْثُ أَبْدَعَ هَذِهِ الْبَدَائِعَ الَّتِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَا حَبٌّ يَهْتَدَى بِمَنَارِهِ . وَعَلِمَ بِسْتِضَاءِ بِنَارِهِ . وَأَرْسَلَ

(١) [٢ / البقرة / ١٩٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١٥ / الحجر / ٤١] .

رسلاً مبشرين ومنذرين . وأنزل عليهم كتباً من جملتها هذا الوحي الناطق بحقيقة الحق .
الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق . الهادى إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية
إلى معالم الهدى . المنحية عن فيافي الضلالة ومهاوى الردى .

الثالثة - الضمير في (وَمِنْهَا جَائِرٌ) للسبيل . فإنها تؤنث . أى : وبعض السبيل مائل
عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه . وهو طرق الضلالة التي لا يكاد يحصى
عددها ، المندرج كلها تحت الجائر . كقوله تعالى (١) : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ،
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

قال أبو السعود ، بعدما تقدم : أى : وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق
وتعديله ، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد - وهذا هو الهداية
المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما
ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته . بل هو مغلّب بحكمته ، حيث يستدعى
تسوية المحسن والمسيء ، والطيع والعاصي ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى :
(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية
موصلة إليه البتة ، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين ، لفعل ذلك . ولكن لم يشأ . لأن
مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها . ولا حكمة في تلك المشيئة . لما أن الذى عليه يدور فلك
التكليف ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب ، إنما هو الاختيار ، الذى عليه يترتب الأعمال ،
التي بها فيط الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العالم السفلى ، بعد الحيوان ، النبات ، تأثر ما مر من الإنعام
بالأنعام والدواب ، التي يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة
نفسها . فقال سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

[١١] (يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ » يسكن حرارة العطش « وَمِنْهُ شَجَرٌ » أى ومنه يحصل شجر. والمراد به ما ينبت من الأرض، سواء كان له ساق أو لا ، « فِيهِ تُسِيمُونَ » أى ترعون أنعامكم « يُنَبِّتُ » أى الله عز وجل « لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ » أى الذى فيه قوت الإنسان « وَالزَّيْتُونَ » أى الذى فيه إدامه « وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ » أى اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فى إنزال الماء وإنبات ما فصل « لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى دلالة وحجة على وحدانيته تعالى . كما قال سبحانه^(١) « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ عَشْرَ آيَاتٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِقَوْمٍ يَعْمَلُونَ » .

قال أبو السعود - وأصله للرازي فى شرح كون ما ذكر حجة - : فإن من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع . ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لا إلى نهاية .

(١) [٢٧ / النحل / ٦٠] .

مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل - علم أن مَنْ هذه أفعاله وآثاره ، لا يمكن أن يشبهه شيء ، في شيء من صفات الكمال . فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته ، التي هي الألوهية واستحقاق العبادة . تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية، قطع الآية الكريمة بالتفكير . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أي لنا منكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » لإصلاح ما نيظ بهما صلاحه من المكونات « وَالنُّجُومَ » ليهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله تعالى : « مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ » حال من الجميع . على معنى جعلها مسخرات . لأن في التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص . فمعناه نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعكم . فـ (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل . لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن (مسخرات) مصدر ميمي ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله : (مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادي . لأن الإحداث لا يدل على الاستمرار . وقرئ بـ نصب الليل والنهار وحدها . ورفع ما بعدها على الابتداء والخبر . وقرئ (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ) بالرفع مبتدأ وخبر ، وما قبله بالنصب ؛ « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أي تسخير ما ذكر « لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ولما نبه تعالى على معالم السموات ، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ،

والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَمَا ذَرَأَ » عطف على قوله تعالى (وَالنُّجُومُ) رفعا ونصبا ، على أنه مفعول (لجعل) أى وما خلق « لَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى من حيوان ونبات « مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » .

ثم نبه تعالى ممتنا على تسخير البحر ، وتعداد النعم به ، إثر امتنانه بنعم البر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ قُضَاهِمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا » هو السمك .

قال الزمخشري : ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكان ذلك تلميحاً لأكله ، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : ففيه إدماج لحكم طبيّ . وهذا لا ينافي تقديده وأكله مخللاً ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر في سر وصفه بالطراوة ، هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكر في باهر قدرته وعجيب صنعه ، سبحانه ، في خلقه إياه ، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما في الحيوانية .

« وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً كَاللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ » تَلْبَسُونَهَا « أى تلبسها نساءؤكم ، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم في الخلطة والتابعية . ولأنهن إنما يزينن بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى (تلبسون) تتمتعون وتلتذون . على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أى تلبسها نساءؤكم .

قال الناصر : ولله درّ مالك رضى الله عنه ، حيث جعل للزوج الحاجر على زوجته فيما له بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث ، لحقه فيه بالتجمل . فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له . فعبّر عن حظه في لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال (١) :

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَدَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وهي للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل . لأن المراد لازمه . أى تحلونهن . والثانى ، على فرض تسليمه ، هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليبا ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونساءكم . ونكتة العدول ، أن النساء

(١) البيت خامس خمسة أبيات قالها الشاعر المعروف بالمنازى . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ١٢٦) الترجمة رقم ٥٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفى التصريح به ليكون اللفظ كاللغوي . انتهى .

وناقش صاحب (فتح البيان) ما قدره في الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : (تَلْبَسُونَهَا) أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أى يحملونها حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله (تَلْبَسُونَهَا) بقولهم : تلبسها نساؤهم . لأنهن من جملتهم ، أولكنهن يلبسها لأجلهم . وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهنّ ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجاناً . انتهى .

قال السيوطي في (الإكمال) : في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها . واستدل بها من قال بمحنت الحالف لا يلبس حلماً بلبس اللؤلؤ . لأنه تعالى سماه (حلماً) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة في حلّي النساء . فأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر . أنه سئل : هل في حلّي النساء صدقة ؟ قال : لا . هي كما قال : (حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا) . انتهى .

قال في (فتح البيان) : وفي هذا الاستدلال نظر . والذي ينبغي التعميل عليه : أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف . ولم يرد في الجواهر ، على اختلاف أصنافها ، ما يدل على وجوب الزكاة فيها . وقوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ » أى السفن « مَوَاحِرَ فِيهِ » أى جوارى جمع (ماخرة) بمعنى جارية . وأصل معنى (المخر) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها « وَتَلْبَسُونَهَا » من فضله « عطف على محذوف . أى لتتفقوا بذلك (لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أى من سعة رزقه ، بركوبها للتجارة « وَكَعَلَمَكُمُ تَشْكُرُونَ » أى فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر ، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، في مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلاً . مع أنها في تضايف المهالك . وعدم توسط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ، للإيدان باستغناؤه عن التصريح به وبحصولها معاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ)

[١٦] (وَعَلَّمْتِ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي » أي جبالاً ثوابت « أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » أي تضطرب « وَأَنْهَرَا » أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر ، رزقا للعباد « وَسُبُلًا » أي طرقا يسلك فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى في الجبال . كما قال تعالى ^(١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) « لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ » أي بها إلى مآربكم « وَعَلَّمْتِ » أي دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح ، برّاً وبحراً ، إذا ضلوا الطريق « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » أي في الظلام برّاً وبحراً . والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة للالتفات . وتقديم (بالنجم) للفاصلة . وتقديم الضمير للثبوت . وهذا أولى من دعوى الزمخشري ؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر . وذلك لأن الخطاب في الآيات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقها .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : هذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة

والطرق .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[١٨] (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« أَفَمَنْ يَخْلُقُ » أى كل شيء ، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله الواحد الأحد « كَمَنْ لَا يَخْلُقُ » أى شيئاً ما ، وهو ما يعبدون من دونه . وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته ، ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك ، بل على إيجاد شيء ما .

وزعم الزمخشري ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تكلموا فى سره . وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى ^(١) (وَإِنْسَ الَّذِ كَرُ كَأَلَانِئْ) فجدد به عهداً . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتمعرفوا فساد ذلك . فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكير .

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى ، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » أى لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر « إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى حيث يتجاوز عن التقصير فى أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم . ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشري .

ولخط ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنابوا . أى فيمتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقي . ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية ، عقيب ما تقدم من النعم المعددة ، تكلمة

(١) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

لها على طريقة قوله تعالى^(١) (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ولعلّ فصل ما بينهما بقوله^(٢) (أَقْمَنَ يَخْلُقُ) الآية ، للمبادرة إلى إزام الحجة ، وإلقاء الحجر ، إثرَ تفصيل مافصل من الأفاعيل ، التي هي أدلة الوجدانية .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٩] (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)
 [٢٠] (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)
 [٢١] (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » أى من أعمالكم وسيجزىكم عليه « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى فأنى تستحق الألوهية ، وقد نفى عنها أخص صفاتها ؛ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أو المعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير ، وهم لا يقدرّون على نحو ذلك . فهم أعجز من عبدتهم . كما قال الخليل^(٣) عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافى الألوهية بقوله « أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ » أى هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل . وقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) تأكيد أو تأسيس . لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً . كأجساد الحيوان ، والنطف التي ينشئها الله تعالى حيواناً . فلذا احترز عنه بقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) أى لا يعترىها الحياة أصلاً . فهى أموات على الإطلاق ، حالاً ومآلاً « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى تلك الأصنام المعبودة « أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى يكون

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٩٥ و٩٦] .

بعثها . وقد رُوي ، أنها تبعث ، ويعمل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها . ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوز عود الضمير إلى عابديها . أى : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم . تهكاً بحالها . لأن شعور الجماد محال . فكيف بشعور مالا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

[٢٣] (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

« إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » تصريح بالدعى ، وتمحيض للنتيجة ، غب إقامة الدليل . كما أفاده أبو السعود « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ » أى لوحدانيته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متعجبين من ذلك بقوله (١) : (أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) وقال تعالى (٢) : (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ) وقوله تعالى « وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته تعالى « لَا جَرَمَ » أى حقا « أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » أى عن التوحيد ، وهم المشركون . أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى (٣) : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٥] .

(١) [٣٨ / ص / ٥] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى لم ينزل شيئاً. إنما

هذا الذى يتلى علينا أحاديث الأولين ، استمدتها منها . كما قال تعالى (١) : (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم

الخاصة بهم ، وهى أوزار ضلالهم فى أنفسهم ، وبعض أوزار من أضلوهم . كقوله تعالى (٢)

(وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيَسَّ لُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) فاللام

فى قوله (لِيَحْمِلُوا) لام العاقبة . لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إما مجازاً . وإما

حقيقة ، على معنى أنه قدر صدوره منهم ليحملوا . وقد قيل : إنها للتعليل وإنها لام أمر

جازمة . والمعنى : إن ذلك متحقق عليهم . فبتم الكلام عند قوله : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

كذا فى (العناية) . وقوله تعالى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال الزمخشرى : حال من المفعول . أى :

من لا يعلم أنهم ضلال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه ، وإن لم يعلم ،

لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بمقله حتى يميز بين الحق والمبطل . فجعله لا يعذر « أَلَا سَاءَ

مَا يَزُرُونَ » أى : ألا بس ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى بأبيائهم « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » أى قلع بنيانهم من قواعده وأُسسه، فهدمه عليهم حتى أهلكتهم و (الإتيان) يتجاوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى (١) « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا » ويقال أتى فلان من مأمنه . أى جاءه الهلاك من جهة أمنه . وأتى عليه الدهر: أهلكه وأفناه . ومنه الأتو . وهو الموت والبلاء . يقال أتى على فلان أتو أى موت أو بلاء يصيبه . وقد جوز في الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالحكى عن قوم لوط وصالح ، عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل ، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى . شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكائد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام ، وفي إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قِبَلِ أساطينه بأن ضعفت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم . كقولهم : من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً . وقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) متعلق بـ (يخر) . و (من) لا ابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد . لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط : إذا نهدم في ملكه وإن لم يقع عليه « وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ » أى الهلاك والدمار « مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ » أى بذلهم ويهينهم بمذاب الخزى، لقوله تعالى (١): (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ) « وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ » أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم . وفيه تفرير وتوبيخ بالقول ، واستهزاء بهم . إذ أضاف الشركاء إلى نفسه لأذى ملابسة ، بنساء على زعمهم ، مع الإهانة بالفعل المدلول عليها بقوله (يُخْزِيهِمْ) . أى ما لهم لا يحضرونكم ليدفعوا عنكم ! لأنهم كانوا يقولون : إن صح ما تقول فالأصنام تشفع لنا . فهو كقوله (٢): (أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقيل : حكى عن المشركين زيادة فى توبيخهم . « قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » وهم الأنبياء أو العلماء ، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاققونهم « إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ » أى الفضيحة والعذاب « عَلَى الْكَافِرِينَ » أى المشركين به تعالى ، ما لا يضرهم ولا ينفعهم . وإنما قال (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) هذا شمانية بهم ، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول ، وتقريراً لما كانوا يعظونهم ، وتحقيقاً لما أوعدوهم به .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٢] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)

«الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ » هذا إخبار عن حال المشركين الظالمين أنفسهم بتبديل فطرة الله، عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم، أى ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقة . والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع . وأصل الإلقاء في الأجسام . فاستعمل في إظهار الانقياد ، إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم . وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب ، على الاستعارة . وقوله تعالى (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) منصوب بقول مضمر ، حال . أى قائلين ذلك . أو هو تفسير (للسلم) الذى ألقوه، لأنه بمعنى القول . بدليل الآية الأخرى^(١) (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ) كما يقولون يوم المعاد (وَاللَّهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)^(٢) . (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)^(٣) . ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله (بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) أى مقدرًا خلودكم .

قال ابن كثير: وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم . وينال أجسادهم، في قبورها،

(١) [١٦ / النحل / ٨٦] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

من حرّها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ، وخلدت في نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كقَالَ تعالى (١) (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وقوله (فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى يئس القيل والمقام لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبر ، للإشمار بعليتهم لثوابهم فيها . ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا في جواب (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ) هو (أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) فجدوا رحمته وكفروا نعمته - تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » وهم المؤمنون « مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا » أى أنزل

خيرًا ، أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى لمن أحسن عمله ، مكافأة في الدنيا بإحسانهم . ولهم في الآخرة ما هو خير منها . فقوله (فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) متعلق بـ (حَسَنَةٌ)

كتعلقه بـ (أَحْسَنُوا) . قال الشهاب : والحسنة التى فى الدنيا الظفر وحسن السيرة

وغير ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى (٢) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقوله (٣)

(فَأَنَّهُمْ لَللَّهِ نُورَابِ الدُّنْيَا وَحُسْنُ نَوَابِ الْآخِرَةِ) وقال تعالى (٤) (وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٨] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٩٨] .

تَلَايِرًا) وقال^(١) (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله « وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

[٣٢] (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ » كقوله تعالى^(٢) : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) « كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ » ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » أى طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وكل سوء « يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخى إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . . . » الآيات . ثم أشار إلى تفرع المشركين ، وتهديدهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا ، بقوله تعالى :

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧١] .

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)
 [٣٤] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أى لقبض أرواحهم بالعذاب « أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ » أى العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعانينونه من الأحوال « كَذَلِكَ » أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء « فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى ففادوا فى ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ » فيما أحلّ بهم فى عذابه الآتى بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا » جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الواحدانية وتكذيب الرسل ونحوها « وَحَاقَ بِهِمْ » أى أحاط بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » من العذاب الذى توعدتهم به الرسل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ)

[٣٦] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا

حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَّغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ، تكذيباً
لرسل صلوات الله عليه ، وطعننا في الرسالة . وذلك قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) أي من البحائر والسوائب
والوسائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ، مما لم يُنزل الله به سلطاناً
ثم أعلم تعالى مشا كلتهم لمن تقدمهم ، بقوله (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي من
الشرك والتحریم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا ، لَأَنْكَرَهُ عَلَيْنَا
بالعقوبة ، ولما مكفنا منه . قال الله تعالى راداً عليهم شبههم (فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ
الْمُبِينُ) أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ،
ونهاكم عنه أكد النهي ، وبعث في كل أمة ، أي في كل قرن وطائفة من الناس ، رسولا .
وكلهم يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)
وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك
في بني آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض ، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه
وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى (١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي
إِلَيْهِ أَنَّهُ وَايِلَهُ إِلَّا إِلَهٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وكما أخبر هنا في هذه الآية . فكيف يسوغ
لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)؟

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

فشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية . لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهي تمكينهم من ذلك قدرأ ، فلا حجة لهم فيها . أى لأنها من سر القدر الذى حُظِرَ الخوض فيه . ثم أنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله . (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) الآية . وقد تقدم لنا فى سورة الأنعام نقل ما للأئمة فى مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضاً ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى أول الجزء الثانى من (منهاج السنة) مما يتعلق بالآية ، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضاً . فإن الآية من معارك الأوهام . فلا علينا أن نَجْلُو عن الشبه فيها صداً الأوهام . قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه . فإن كثيراً من الناس ، إذا أمرَ بما يجب عليه تعمل بالقدر وقال : حتى يقدر الله ذلك ، أو يقدرنى الله على ذلك ، أو حتى يقضى الله ذلك . وكذلك إذا نُهِىَ عن فعل ما حرّم الله قال : الله قضاءه علىّ بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة . باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين . والاحتجّ به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها فى ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ماله عليه ، ويماقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التى تعرض فى العلوم . فكأنك تعلم فسادها بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس . حتى قد يشك فى وجود نفسه . وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض فى الأعمال حتى يظن أنها شبهة فى إسقاط الصدق والعدل الواجب ، وغير ذلك . وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلم القلوب بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله . فإذا كان معه علم بأن مافعله هو المصلحة ، وهو المأمور وهو الذى ينبغى فعله ، ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذى لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به - لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه

بغير علم ، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون ^(١) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَثْرَ كُنَّا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) قال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ^(٢) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّ لَكُمْ أَجْمَعِينَ) فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحججة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخر أو حرج في ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصرّاً على الظلم فهناه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا - لم يقبلوا منه هذه الحججة . ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج بها المحتج دفماً للوم بلا وجه . فقال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغى فعله (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنون ذلك إلا ظناً (وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وتفترون . فعمدتكم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم . ليس عمدتكم في نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدره . فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد في الفعل . ولا حجة لأحد على أحد ولا عدراً لأحد . إذ الناس كلهم مشتركون في القدر . فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر . ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال لما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم . وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيد ، والإيمان به ؛ لو احتج به بعضهم على بعض في سقوط حقوقه ومخالفة أمره ، لم يقبله منه . بل كان هؤلاء المشركون بدم بعضهم بعضاً ويعادى بعضهم بعضاً ويقا تل بعضهم بعضاً على فعل من يريد تركاً لحقهم ، أو ظلاماً . فلما جاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره ، واحتجوا بالقدر . فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حق ربهم ومخالفة

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

أمره ، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم . وفي الصحيحين^(١) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ بن جبل ! أتدرى ما حق الله على عباده ؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يُعَدَّ بهم .

فلاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويترون (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وهم إنما يحتجون به في ترك حق ربهم ومخالفة أمره ، لاني ترك ما يرونه حقاً لهم ولا في مخالفة أمرهم . ولهذا تجد المحتجين والمستندين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ، يفترون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً . بل يعتمدون عليه ، لعدم الهدى والعلم . وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والغي لكثير من الناس . ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهي ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها . فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله تعالى . وليس معهم إلى الظن والدوق والوجدان الذي يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والحرص . وهم متبعون أهواءهم في الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم ، خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى . كما قال تعالى^(٢) (فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى^(٣) : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَا لَهُمْ مِمَّا لَهُمْ بِدَلِيلٍ مِّنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث ١٣٧١ وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٣] . (٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

يَخْرُصُونَ ، وقال في سورة الأنعام^(١) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) إرسال الرسل وإزال
الكتب كما قال تعالى^(٢) : (لِكُلِّ أُمَّةٍ لِكُونٍ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ مِّمَّا بَعَدَ الرُّسُلِ) ثم أثبت القدر
بقوله : (فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية . وكلاهما
حق . وقال في النحل^(٣) (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ
شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) فبين سبحانه وتعالى - أن هذا
الكلام تكذيب للرسول فيما جاء وهم به . ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على تكذيب
كل صدق وفعل كل ظلم . ففي فطرة بني آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج
لعدم العلم واتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسول بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله
بإرسال الرسل وإزال الكتب . كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٤)
أنه قال : لا أحد أحب إليه العذر في الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين .
ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أعير من الله .
من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن
يعذر ويبيغض الفواحش ، فيحب أن يمدح بالعدل والإحسان . وألا يوصف بالظلم . ومن
المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن افعلوا كذا ولا تفعلوا . وبين لهم وأزاح عنهم ، ثم تعدوا
حدوده وأفسدوا أمورهم ، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدر علينا
هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، يبين
أن ما فعلتموه كان حسنا ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الكلام غير مقبول منكم .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . (٣) [١٦ / النحل / ٣٥] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٠ - باب قول النبي ﷺ :

لا شخص أعير من الله ، حديث رقم ٢٥١٨ ، عن المغيرة .

وأخرجه مسلم في : ١٩ - كتاب اللعان ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن وليّ أمر أعطى قومًا مالا ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه في البرية ليس عنده أحد وباتوا في مكان بعيد منه ، وكان وليّ الأمر قد أرسل جنداً يفتنون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق ، فأوا ذلك المال فظنوه لِقْطَةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا - لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به ، ولو قالوا له : أنت لم تعاملنا أنك تبعث بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم ، قال : هذا لا يجب عليّ ، ولو فعلته لكان زيادة إغانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قاعة . ولم يكن يدعى فيهم ظالماً . وإن كان لم يُعِثْهم بالإعلام بذلك الجند . لكن عمل المصلحة في إرسال الأولين والآخريين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى ، حَكَمٌ عدل في كل ما جعله . ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلاً حكماً في خلق هذا وخلق هذا ، والأمر بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يمدّ الأولين زيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها للزم منها تفويت مصلحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتاج أحد بالقدر إلا حجة لتعليل ، لعدم اتباع الحق الذي بيّنه العلم . فإن الإنسان حيٌّ حسّاس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبي ﷺ ^(١) : (أصدق الأسماء . الحارث وهمّام) فالحارث الكاسب العامل . والهّمّام الكثير همّ . والهّمّ مبدأ الإرادة والقصد . فكُل إنسان حارث هام . وهو المتحرك بالإرادة . وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد . فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا

(١) قال في الجامع الصغير : الشيرازي في (الألقاب والكنى) والطبراني في الكبير)

عن عبد الله بن مسعود .

اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور . فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب . والحى مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذا تصور الشيء الملائم النافع ، أراده وأحبه . وإن تصور الشيء الضار أبغضه وقر عنه . لكن ذلك التصور قد يكون علماً وقد يكون ظناً وخرصاً . فإذا كان علماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة ، وهو الذى يلائمه ، كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعاً للظن وماتمهور نفسه . فإذا جاء العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لدردٍ وتفريج ، لاحجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد في باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقررًا بأن ما هو عليه ليس معه به علم . وإنما تسكلم بغير علم . ومن تسكلم بغير علم كان مبطلاً في كلامه . ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فيما أن يكون جاهلاً ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قد عرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه . فتبين أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم^(١) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) . انتهى .

وله تمة سابقة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

وقال القاشانى في هذه الآية : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عَمَادًا وَتَعَمُّتًا عن فرط الجهل وإلزاما للموحدين ببناء على مذهبهم . إذلو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير . لأن من علم أنه لا يمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من في العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ، لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفي القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركاً ، قال الله تعالى^(٢) (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٧] .

مَا أَشْرَكُوا) وقوله تعالى^(١) (كَذَّبَاكَ فَقَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى فى تكذيب الرسل بالعماد انتهى .

وقال الإمام مفتى مصر فى تفسير سورة العصر، من هذا البحث مامثاله : فالعقل والشرع والحسّ والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات ، إنما هو نسبتها إليه . ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه . مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البدهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى . وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم . ندبر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . وتتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تكميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند الملمين . فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه ، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهى عنده . ويعمل بما أمره به ويحْتَنِب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم^(٢) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصبر ، لو وقف عند ما حد الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده . ولست أحب التسكلم فى هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول (واعتمادى على الله فيما أقول) إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

(١) [١٦ / النحل / ٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

وقال في موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدين . وقد جاء الكتاب الكريم بتشجيع اعتقادهم والنعمى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ) ^(١) فلا يسوغ لأحد منا، وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)
 [٣٨] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ » أى من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى ينصرونهم فى الهداية ، أو يدفعون العذاب عنهم . ثم بين تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم ، وهو إنكارهم البعث بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ، جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » أى جاهدين فيها (جهد) مصدر فى موقع الحال « لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى إنه يبعثهم ، فيبتون القول بعدمه ! وإنه وعداً عليه حق ، فيكذبونه - وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ، وبما يجوز عليه وما لا يجوز . وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة . أفاده أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى فى العاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ)
[٤٠] (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)

« لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ » وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله
« وَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ » أى فى أباطيلهم . لاسيما فى أيمانهم بعدم
البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة^(١) (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ) ثم
يبين عظيم قدرته ، وأنه لا يعجزه شىء ما بقوله سبحانه « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ
أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فىوجد على ما شاء تكوينه كقوله تعالى^(٢) (وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) وقوله^(٣) (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعْثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) .
قال الزخشرى : (قَوْلُنَا) مبتدأ و (أَنْ نَقُولَ) خبره و (كُنْ فَيَكُونُ) من (كان)
التامة التى بمعنى الحدوث والوجود . أى إذا أردنا وجود شىء فليس إلا أن نقول له : احدث ،
فهو يحدث عقيب ذلك ، لا يتوقف . وهذا مثل . لأن مراداً لا يمتنع عليه . وأن وجوده عند
إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود الأمور به عند أمر الأمر الطاع إذا ورد على الأمور المطيع
المتثل . ولا قول ثم . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف
يتمنع عليه البعث الذى هو فى شق المقدورات . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إن (كن) إن كان خطاباً مع المعلوم فهو محال . وإن
كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفى الآية كلام لطيف مضى فى سورة البقرة ،
فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلان ، رجاء ثوابه
وابتغاء مرضاته ، بقوله :

(١) [٥٢ / الطور / ١٤] . (٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] . (٣) [٣١ / لقان / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ،
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ » أى مخلصين لوجهه، أو فى حقه، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره ﷺ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى صغار أبنائهم، وهى أول هجرة فى الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أوهم مهاجرة المدينة، أخبر به قبل وقوعه أو بعده، إلا أنها ألحقت بالمكية . وقوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أى أوذوا وأريد فتنهم عن الدين « لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » يعنى بالعلبة على من ظلمهم ، وإيرائهم أرضهم وديارهم « وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » يعنى مضطهدهم وظالمهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : خذ بارك الله لك فيه . هذا ما وعدك الله فى الدنيا . وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم وصفهم تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٤٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ ، فَسَلُّوا اَهْلَ الدِّكْرِ
إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٤٤] (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ اِلَيْهِمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على ما أوذوا فى سبيل الله « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فلا

يخشون أحدا غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل ، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له . إذ لا ظفر بغاية إلا بهما . ولما عجبوا من إحياء الله لرسوله ، واصطفائه برسالته ، قيل في درء شبهتهم « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » يعني أهل الكتاب أو علماء الأخبار . ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالدكر ، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله (٣) « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ » أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد في الفروع للعامي . وفي ذلك بحث طويل في (إيقاظ الهمم) للفُلاَني فارجع إليه إن شئت . وأشار إلى طرف منه في (فتح البيان) .

وقوله تعالى : « بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ » أي بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجار متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أي أرسلناهم . أو (ما أرسلنا) . أو (نوحى) أو (لا تعلمون) ، على أن الشرط للتبكيك والإلزام « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ » أي القرآن المذكور والموظ من سنة الغفلة « لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » أي مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا « وَكَلَّمَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أي ينظرون لأنفسهم فيمتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين . أو يتأملون مافيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ » أي المكرات السيئات التي قُصَّتْ عنهم . فهي

صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ (مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) « أَنْ يَخْشِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى من جهة لا يعلمون بها ، كما لا يشعر المكور بقصد الماكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

[٤٧] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[٤٨] (أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّهٗو عَنِ الْيَمِينِ

وَالشَّمَائِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

« أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ » أى سعيهم فى العايش واشتغالهم بها « فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى لا يعجزون ربهم على أى حال كانوا « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » أى توقع للهلاك وخافة له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو تنقص فى أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه « فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى حيث يحلم عنكم ولا يماجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته ، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » أى جسم قائم له ظل « يَتَفَيَّؤُا ظِلَّهٗو » أى يرجع شيئاً فشيئاً « عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ » أى عن جانبي كل واحد منها ، بُكْرَةً وَعَشِيًّا « سَجْدًا لِلَّهِ » أى منقادة له على حسب مشيئته فى الامتداد والتقلص وغيرها ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له « وَهُمْ دَاخِرُونَ » أى صاغرون . وغلب فى جمعها من يعقل ، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة : وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعبر ما ذكر فيه ، ويجعل ما بعده جارياً على المشاكلة .

لطيفة : لابن الصائغ في سر توحيد اليمين وجمع الشئائل توجيهه لطيف . وملخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما . لأن ظل الغداة يضمحلّ بحيث لا يبقى منه إلا اليسير . فسكانه في جهة واحدة . وهو في العشيّ على العكس ، لاستيلانه على جميع الجهات . فلحظت الغائتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له . كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلاله) وقدم الأفراد لأنه أصل أخف . و (عَنِ الْيَمِينِ) متملق بي (يتفيؤ) أو حال . كذا في (الغاية) .

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(سجدة) [٤٩] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ» أي

الملائكة ، مع علو شأنهم «لَا يَسْتَكْبِرُونَ» أي عن عبادته والسجود له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

«يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» أي من الطاعات والتدبير .

واستدل بقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) على ثبوت الفوقية والعلو ، له تعالى . وقد صنف في ذلك

الحافظ الذهبي كتاب (العلو) وابن القيم كتاب (الجيش الإسلامية) وغيرها . وأطرب

فيها الحكيم ابن رشد في (مناهج الدولة) فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علوٌ

بلا تشبيه ولا تمثيل . وانفرد السلف بحظر التأويل والتعطيل . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ أُثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَإِيتِيَّ فَارْهَبُونِ)

« وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ أُثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيتِيَّ فَارْهَبُونِ » .
إعلام بنبيه الصريح عن الإشراك . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والمثنى نص في معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكر مع الجميع . أى في نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن العدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص ، فلم يذكر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد الخصوص . فلما أريد الثاني صرح به للدلالة على أنه المقصود الذي سيق الكلام وتوجه له النهى دون غيره . فإنه قد يراد بالفردي الجنس نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثنى كقوله (١) :

فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الانثنية تنافي الألوهية . فهو في معنى قوله (٢) (لَوْ كَانَ

(١) قائله نصر بن سيار . من أربعة أبيات ، يحسن الوقوف عليها ، ومعرفة سبب قولها .

قال ابن قتيبة في (عيون الأخبار) بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثاني .

كان يزيد بن عمر بن هبيرة يحب أن يضع من نصر بن سيار . فكان لا يمدّه بالرجال ، ولا يرفع ما يرد من أخبار خراسان . فلما كثرت ذلك على نصر ، قال :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

والبيت ...

فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جث وهام

قلت من التعجب : ليت شعري ! أيقاظ أمية أم نيام

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

فِيهِمْ مَاءَ الْهَيْئَةِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) فلذا صرح بها، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : (وَقَالَ اللَّهُ) معطوف على قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ) أو على قوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) وقيل : إنه معطوف على (مَا خَلَقَ اللَّهُ) على أسلوب (١) * عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءَ بَارِدًا * .

(١) وعجز البيت :

* حَتَّى غَدَتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا *

الشاهد رقم ١١٥ من شرح شذور الذهب لابن هشام .

قال صاحب (منتهى الأرب) :

لم أقف لهذا الشاهد على نسبة إلى قائل معين . ويروى صدره عَجْزًا فِي بَيْتٍ آخَرَ ،

هكذا :

لَمَّا حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وَارِدًا عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءَ بَارِدًا

الشاهد فيه قوله (وماء) فإنه لا يمكن عطفه على ما قبله ، العامل في المعطوف عليه ،

لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معناه على حاله .

وللعملاء ثلاثة آراء في تخريج هذا البيت ونحوه :

أحدها - أن قوله : (وماء) لا يجوز أن يكون مفعولا معه ، كما لا يجوز أن يكون معطوفا

على ما قبله عطف مفرد على مفرد . بل هو مفعول لفعل محذوف يناسبه . وهذا الوجه هو الذي

ذكره المؤلف ههنا .

وانظر مزيدا في ذلك بالصفحة رقم ٢٤١ .

أى : (أَوْلَمَ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ) ولم يسمعوا ما قال الله ؟ . ولا يخفى تكلفه .
وفى قوله (فَأَيُّ فِرْيَافٍ فَارْهَبُونَ) التفات عن الغيبة، مبالغة في الترهيب. فإن تخويف الحاضر
مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لاسيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للمعظمة
والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥٢] (وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)
[٥٣] (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ)
[٥٤] (ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)
[٥٥] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » مطوف على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) أو على
الخبر ، أو مستأنف . « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » أى العبادة لازمة له وحده. ولزومها له ينافى خوف
الغير ، إذ يقتضى تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله (١) : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ
يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .

« أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ » أى وهو مالك النفع والضر . « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ
اللَّهِ » أى فمن فضله وإحسانه « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ » أى لاتنزعون
إلا إليه ، لعلمكم أنه لا يقدر على كشفه إلا هو سبحانه . والجوار : رفع الصوت . يقال :
جأر إذا أفرط فى الدعاء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

« ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » أى بنسبة
النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب فى ذلك عليه ،

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

والاستعانة في رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله :
 « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى من نعمة الكشف عنهم . واللام للعاقبة والصيورة
 « فَتَمَتُّوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ » أى وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه
 إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .

وللقاشاني وجه آخر قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لا تأثير لغير الله في
 شئ . ثم بين تعالى من مثالب المشركين قوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا
 كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)

[٥٧] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

« وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ » . أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جاد « نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ »
 أى من الزرع والأنعام وغيرهما تقربا إليها « تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ » أى :
 من أنها آلهة يُقرب إليها . ومرّ نظير الآية في سورة الأنعام في قوله سبحانه (١) « وَجَعَلُوا لِلَّهِ
 مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا » الآية ، فانظر تفصيلها ثمّت « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
 سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » هذا بيان لعظمة من عظامهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين
 هم عباد الرحمن بنات لله ، فنسبوا له تعالى ولدا ولاولده له . واجترأوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة
 أدنى القسمين له من الأولاد ، وهو البنات . وهم لا يرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور ،
 أى يختارونهم لأنفسهم ويأقنون من البنات . وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله (سُبْحَانَهُ) و
 أى عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجيب من جراتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ،
 ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستئثار كما قال سبحانه (٢) « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذًا

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] . (٢) [٥٣ / النجم / ٢١ و ٢٢] .

قِسْمَةٌ ضِيزَى) وقال تعالى (١) (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجناب الأقدس وفضاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

[٥٩] (يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيَسْكُهُ وَ عَلَىٰ هُونٍ

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ » أى صار أو دام النهار كله « مُسْوَدًّا »

أى متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر به عن المساءة والمسرة ، كنايةً أو مجازاً . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مشتمد الغيظ على امرأته لأنه ، بزعمه ، حصل له منها ما يوجب أشد الحياء حتى أنه « يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ » أى يستخفى منهم « مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ » أى من أجله وخوف التعيير به . ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى « أَيَسْكُهُ وَ عَلَىٰ هُونٍ » أى محدثاً نفسه متفكراً فى أن يتركه على هوان وذل ، لا يورثه ولا يعتنى به ، ويفضل ذكور ولده عليه « أَمْ يَدُسُّهُ وَ فِي التُّرَابِ » أى يخفيه ويدفنه فيه حياءً « أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى حيث يعملون الولد ، الذى هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس . ويعملون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥١-١٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى مثل من ذكرت مساوئهم « مَثَلُ السَّوْءِ » أى صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكرهة الإناث ووأدهن ، خشية الإملاق ، المناذى كل ذلك بالمعجز والقصور والشح البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة « وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الوصف العالى الشأن ، وهو الغنى عن العالمين . والكمال المطلق والتقديس عن سمات المخلوقين : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقه ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[٦٢] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسْمَانَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ)

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ » أى بكفرهم ومعاصيهم التى منها ما عدد من المساوىء المتقدمة « مَا تَرَكَ عَلَيْهَا » أى على الأرض المدلول عليها بالناس ، وبقوله تعالى : « مِنْ دَابَّةٍ » أى لأهلكها بالمرّة بشؤم ظلم الظالمين « وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى »

أى وقت معين تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له، ويصبر من يصبر فيزداد عذاباً « فَأِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ » أى المسمى « لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ » أى ينسبون إليه « مَا يَكْرَهُونَ » أى من البنات ومن الشركاء . وهم يأتفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى ما لهم . وهو تكرير لما سبق ، تثنيةً للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

« وَتَصِفُ أَسِنَّتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى » أى يجعلون لله ذلك، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله (١) (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُوَّ لِلْحُسْنَىٰ) يعنى جمع هؤلاء بين عمل السوء وتعنى المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة ، لما جدت ، مكتوباً (تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ . أجل . كما يجتنى من الشوك العنب) و(أَنَّ لَهُمُ) الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى (وَتَصِفُ أَسِنَّتُهُمُ الْكَذِبَ) من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : (عينها تصف السحر) أى ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أى هيفاء . قال أبو العلاء المعرى (٢) :

سَرَىٰ بَرَقُ الْمَعْرَةَ بَعْدَ وَهْنٍ ۖ فَبَاتَ بِرَامَةَ يَصِفُ الْكَلَّالَا

(١) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٢) البيت الأربعون من قصيدته التى مطلعها :

أَعْنَىٰ وَخَدِّ الْقِلَاصِ كَشَفَتْ حَالَا ۖ وَمِنْ عِنْدِ الظَّلَامِ طَلَبْتُ مَا لَا
(بعد وهن) أى بعد طائفة من الليل . و (معرّة النعمان) بالشام . و (رامة) موضع بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً ، نظرنا إلى برق مرى من جانب الشام من صوب =

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ »
 أى معجلون إليها ومقدمون . من (الفرط) وهو السابق إلى الورد . يقال: أفرطته في طلب
 الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيون في النار . من (أفرطته) بمعنى تركته ونسيته ، على
 ما حكاه الفراء . كقوله تعالى^(١) : (فَأَلْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) وقرأ
 نافع (مُفْرَطُونَ) بكسر الراء . اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز أى متجاوزو الحدّ
 في معاصي الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من (فرط في كذا) إذا قصر . ويقرب
 من الآية ما قص عنهم في قوله تعالى^(٢) (وَلَيْنُ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ
 لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ وَالْحُسْنَىٰ ،
 فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وقال تعالى^(٣) (وَدَخَلَ
 جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا) .

ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل وتكذيب أممهم ، ليتأسى صلوات الله عليه بهم
 بقوله سبحانه :

= معرفة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال ، أى يشكو ضعفه ، لأنه
 قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

انظر شرح التنوير على سقط الزند ، بالصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول (طبعة بولاق
 عام ١٢٨٦ هـ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٣٥ و ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (تَأَلَّه لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

فَهُوَ وَرِيثُهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦٤] (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« تَأَلَّه لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى من

الكفر والتكذيب والعناد « فَهُوَ وَرِيثُهُمُ الْيَوْمَ » أى قرينهم ، يُغْوِيهِمْ . أو المراد باليوم يوم

القيامة . والولى بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ، مبالغة في نفيه ،

وتهمهم ، على حدّ (عنا به السيف) « وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ

لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ « أى فالقرء أن هو الفرقان الفاصل بين الحق والباطل ، وكل

ما يتنازع فيه « وَهُدًى » أى للقلوب « وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ثم أشار إلى عظيم قدرته

في آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثر قدرته في إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله

من وحيه وهدهاء ورحمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٦٦] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن مَّاءٍ بَيْنَ

فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرَّابِينَ)

« وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » أى

بالنبات والزرع، بعد جذبها وبيسها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى هذا التدكير، ويعقلون وجه دلالتة «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسْقِيَهُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَفَرْثٍ» وهو ما فى الكرش من الثفل «وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرَّابِينَ» أى سهل المرور فى حلقهم .

يبيّن تعالى آيته فى الأنعام بما ذكره ، ليستدل به على واحدانيتها وانفراده بالألوهية . وليستدل به أيضاً على الحشر . فإن العشب الذى يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب . فقلب الطين نباتاً وعشباً ، ثم تبدله دماً فى جوف الحيوان ، ثم تحويله إلى لبن ، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة . وإنما ذكر الضمير فى بطونه هنا ، وأثنه فى سورة المؤمنين ، لكون الأنعام اسم جمع ، فيذكر ويفرد ضميره ، باعتبار لفظه . ويؤنث ويجمع باعتبار معناه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» . بيان لآيته تعالى فى الثمرات المذكورة ، ومفته فى المشروب منها والمطعموم . (السُّكْرُ) مصدر سُمى به الخمر . فهو بمعنى السُّكْر كالرُّشْدِ وَالرُّشْدِ . قال الفراء : السُّكْرُ الخمر نفسها . والرزق الحسن الزبيب والتمروما أشبههما ، ولا يقال : الخمر محرمة ، فكيف ذكرها الله فى معرض الإنعام ؛ لِأَنَّ هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة . فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة . وأجاب الرازى بجواب ثان .

وهو : أنه لاجابة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع . وخطب المشركين بها . والخمر من أشربتهم . فهي منفعة في حقهم . قال : ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السُّكَّر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفي (فتح البيان) : قد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة ، وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر . كما في (الكشاف) .

قالوا : إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر . انتهى .

وليس هذا موضع بسط ذلك . قال ابن كثير : وقد ناسب ذكر العقل ههنا في قوله تعالى : (لِقَوْمٍ يَمْقُلُونَ) فإنه أشرف ما في الإنسان . ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأثرية المسكرة صيانة لعقولها . انتهى .

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعقاب ، دلائل قاهرة وبيّنات باهرة ، على أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادراً مختاراً حكماً -- أرشد إلى آيته الساطعة في النحل أيضاً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[٦٩] (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » المراد من الوحي الإلهام والهداية إلى بناءها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض ، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بناءها بيوتاً تأوى إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت الناس ، حيث يعرشون أى يبنون العروش ، جمع (عرش) وهو البيت الذى يستظل به كالعريش . وليس للنحل بيت في غير هذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتها ما كان في الجبال وهو المتقدم في الآية ثم في الشجر دون ذلك ثم في الثالث أقل .

فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن في الجبال والقيافي لا يتعمدها أحد من الناس . وأهلية تأوى إلى البيوت وتتعهد في الخلايا . ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى . فهى تتخذها أولاً . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت . وأكلت من الثمرات . ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : « ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى من كل ثمرة تشبهها ، حلوها ومرها . فالعموم عرفى ، أو لفظ (كُل) للتكثير . أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقى الأمر على ظاهره لجاز . لأنه لا يلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات ، الأكل منها . لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة : إنما أوثر (مِنْ) في قوله تعالى (مِنْ أَجْبَالٍ) الخ ، على (في) دلالة على معنى التبويض . وأن لا تبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا في كل مكان منها .
 نبه عليه الزمخشري .

قال الناصر : ويترين هذا المعنى الذي نبه عليه في تبويض (من) المتعلقة باتخاذ البيوت . بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وَكَلَّ الأكل إلى شهوتها واختيارها . فلم يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض . لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها في تناول الثمرات . كما تقول راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أي شيء شئت . فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى « فَاسْأَلِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا » أي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها . أي إذا أكلت الثمار في المواضع النائية فاسلكي راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوَعَر عليك ولا تضلين فيها . و (ذلالا) جمع ذلول ، حال من (السبل) أي مذلة ذلها الله لك وسهلها . فهي تسلك من هذا الجوّ العظيم . والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ » استثناء ، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ، تعددًا للنعم ، وتنبيها على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمى العسل شراباً ، لأنه يشرب مع الماء وغيره « مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ » أي فنه أبيض وأصفر وأحمر ، لاختلاف ما يؤكل من النور أو مزاجها « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » لأنه من جملة الأشفية والأدوية في بعض الأمراض . وله دخل في أكثر ما به الشفاء والمعاجين . وقلّ

معجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرتة بالنسبة إليه . وفي الصحيحين^(١) عن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : اسقه عسلا . فذهب فسقاه عسلاً فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلاً ما زاده إلا استطلاقاً . قال : اذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله ! ما زاده إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فبرأ .

قال ابن كثير . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلاً وهو حارّ تحللت فأسرعت في الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع . ثم سقاه فكذلك . فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصاح مزاجه واندفعت الإسقام والآلام ببركة إشارته عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وفي (العناية) للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء ، فيها تأييد لقصة الأعرابي فانظرها .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه، وانفراده بألوهيته. وأنه هو الذى ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلت مساقط الأنداء، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنفة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضايا، وتلفظه شراباً .

(١) أخرجه البخارى في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٤ - باب الدواء بالعسل ، وقول الله

تعالى : (فيه شفاء للناس) حديث ٢٢٥١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٩١ (طبعنا) .

قال الحجة الغزالي (في الإحياء) : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدها ضياءً والآخر شفاءً . ثم لو تأمات عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ما سخر الله لأمرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل منها على باب المفذكل ما وقع منها على نجاسة - لتضيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً في نفسك ، وفارغاً من هم بطنك وفرجك ، وشهوات نفسك في معاداة أقرانك ، وموالاته إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل السدس ، فلا تبنى بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا خمساً بل مسدساً لخاصية في الشكل السدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحوها المستدير وما يقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لا تبق الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة . ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تراص الجملة منه بحيث لا تبق بعد اجتماعها فرجة إلا السدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك . لطفاً به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه . لينها عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفي طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقا تل بعضه بعضاً في الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك المسوع . وإذا أهلك شيء منها داخل الخلايا أخرجه الأحياء إلى خارج . وفي طبعه أيضاً النظافة . فلذلك يخرج جميعه من الخلية لأنه منتن الريح . وهو يعمل زمانى الربيع والخريف . والذي يعمل في الربيع أجود . والصغير أعمل من الكبير . وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذبا . يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قل العسل في الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفاً على نفسه من نفاذه لأنه إذا نكد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لتلامذته : كونوا كالنحل في الخلايا . قالوا : وكيف النحل في الخلايا ؟ قال : إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نقته وأبعدته وأقصته عن الخلية . لأنه يضيق المكان ، ويفنى العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يساخ جلدُه كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة ، ويضره السوس . ودواؤه أن يطرح له في كل خلية كف ملح . وأن يفتح في كل شهر مرة . ويدخن بأخشاء البقر . وفي طبعه أنه متى طار من الخلية ، يرعى ثم يعود ، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطفه . كذا في (حياة الحيوان) .

وذكر الإمام الغزاليّ أيضاً في كتاب (الحكمة في خلق المخلوقات) : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً يتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه ، قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق . لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجاً ، افترق النحل خلفهما . ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار . فيستحيل في أجوافها عسلاً . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد ، من شراب فيه شفاء للناس . كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وما لاذ العباد . وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم . فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس . ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها ، لتوعى فيه العسل وتحفظه . فلا تسكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح . فانظر في هذه الذبابة ، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانتها في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ،

ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك . وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع : الأولى سنّ النشوء والنماء . والثانية سنّ الوقوف وهي سنّ الشباب . والثالثة سنّ الأخطاط القليل وهي سنّ الكهولة . والرابعة سنّ الأخطاط الكبير وهي سنّ الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِمَّنْ يَتَوَفَّكُمُ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ

لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[٧١] (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي

رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ » أي أنشأكم من العدم « ثُمَّ يَتَوَفَّكُمُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ

أَرْدَلِ الْعُمُرِ » أي أضعفه وأردته وهو الهرم . وقوله تعالى « لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا »

اللام للصيرورة والعاقبة . أي فيصير ، إن كان عالما ، جاهلا . فيريكم من قدرته أنه كما قدر على

نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال في (العناية) : وكونه غير عالم بعد علمه ، كناية عن النسيان . لأن الناسي يعلم

الشيء ثم ينساه ، فلا يعلم بعد ما علم . أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل ، والمعنى لا يترقى في إدراك

عقله وفهمه ؛ لأن الشاب في الترقى ، والشيخ في التوقف والنقصان .

وفي (الكشاف) : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في النسيان . وأن يعلم شيئا ثم

يسرع في نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل لثلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً ، وقيل لثلا يعلم زيادة علم على علمه الأول . و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية . وجوز فيه التنازع بين (يعلم) و (علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم . أى لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » أى : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق ممالئكم ، وهم بشر مثلكم « فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا » أى فى الرزق ، وهم الملاك « بَرَّادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى بمعطيتهم إياه « فَهَمُّ فِيهِ سَوَاءٌ » أى فيستووا مع عبيدهم فى الرزق .

والآية مثل ، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أى أنتم لاتسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم . ولا تجعلونهم فيه شركاء . ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء فى الإلهية والتعظيم ؟ كما قال فى الأخرى ^(١) (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الآية .

« أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى فيشركون معه غيره وهو النعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم بها عليهم . فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

[٧٣] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٧٤] (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » أى فى جنسكم وشكلكم إناثا أزواجاً لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً » أى بنات وأولاد أولاد « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ » وهو منفعة الأصنام وشفاعتها « وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » أى فى إضافة نعمه إلى الأصنام، أوفى تحريم ما أحل لهم « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا » أى من مطر أو نبات (شئنا) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدراً. وإن جعل اسماً للرزق (شئنا) بدل منه بمعنى قليلاً. و (من السموات) متعلق بـ (يملك) على كون الرزق مصدراً. أو هو صفة لـ (رزقاً) « وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى أن يتملكوه. أو لاستطاعة لهم أصلاً. أو الضمير للمشركين. أى ولا يستطيعون، مع أنهم أحياء متصرفون، فكيف بالجناد؟

« فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » أى فلا تجعلوا له أنداداً وأمثالاً. والضرب للمثل فيه معنى الجمل. والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا، وقيل جمع (مثل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به. حيث جعل المشرك به الذى يشبهه بخلقه، بمنزلة ضارب المثل.

فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشركوا . وعدل عنه لما ذكر ، دلالة على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفي لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له ، نعتٌ عظيم على سوء فعلهم . كذا في (شرح الكشاف) .

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أي يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه لما جرأتم عليه ، فهو تعليل للنهي . أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه . فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه . ولما نهاهم عن ضرب المثل الفعلي وهو الإشراف ، عقبه بالكشف لذي البصيرة ، عن حاطم في تلك الغفلة ، وحال من تابعهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »
يعنى أن مثل هؤلاء في إشرافهم ، مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حرّاً مالك يتصرف في ماله كيف يشاء . ولا مساواة بينهما . مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أمجز المخلوقات . وإيثار قوله : (وَمَن رَزَقْنَاهُ) الخ على (مالكا) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكره الإتفاق منه في السر والجهر ، ليكون عاملاً بأمر الله فيه .

وقوله تعالى (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ) أى على ما هدى أوليائه وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لا يستحقه شيء من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هذه الحجّة وظهور الحجّة . وأكثرهم لا يعلمونها ، مع أنها فى غاية ظهورها ونهاية وضوحها .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى مثلاً آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح « رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ » أى أخرس « لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ » أى مما يقدر عليه المنطق الفصح عما فى نفسه « وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ » أى ثقيل على من يلى أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه « أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ » أى حيث يرسله فى أمر لا يأتى بنججه وكفاية مهمه « هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » أى ومن هو بليغ منطيق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحسبهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .

« وَهُوَ » أى فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى على سيرة صالحة ودين قويم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى وأسهله .

قال الأزهرى : ضرب تعالى مثلاً للصنم الذى عبده وهو لا يقدر على شيء ، فهو كليل على مولاه . لأنه يحملها إذا ظعن فيحوّله من مكان إلى مكان . فقال الله تعالى : هل يستوى هذا الصنم الكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال لا تسوا بين الصنم الكل وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزمخشريّ بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وأطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لانصر ولا تنفع . انتهى .

وناقش الرازيّ في حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وباليد وبالسر والبالغة وبالوجه في جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف في الثاني بأنه على صراط مستقيم ، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

وقد يقال في جوابه بأن الأوصاف الأول ، وإن كانت ظاهرة في الإنسان (والأصل في الإطلاق ما يتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن . لأن الآيات في بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لا يصلح للألوهية بوجه ما ، لما فيه من صفات النقص . وأما الوصف في قوله (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكقوله تعالى^(١) : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال ، في بحث أمثال القرآن ، في هذين المثليين ما صورته :

فالمثل الأول . يعني قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا) الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شيء . ينفق كيف يشاء على عبده سرّاً وجهراً وليلاً ونهاراً . يمينه مألئ لا يغيضها نفقة . سحّاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لاتقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إلى ويعبدونها من دوني ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق البين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرّاً وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك

(١) [١١ / هود / ٥٦] .

عاجز لا يقدر على شيء . لأنه لاخير عنده . فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد . فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله^(١) : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ثم قال : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ) ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً . والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء . فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس منها على إرادته . لا أن الآية اختصت به . فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن . فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره ، فيحكيه قوله . وأما المثل الثاني ، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضاً . فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق . بل هو أبكم القلب واللسان . قد عدم النطق القلبي واللساني ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة . وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير . ولا يقضى لك حاجة ، والله سبحانه حتى قادر متمسك بأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . فإن أمره بالعدل ، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له ، راض به أمر لعبادته به ، محب لأهله لا يأمر بسواه ، بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل . بل أمره وشرعه عدل كله . وأهل العدل هم أولياؤه وأجباؤه . وهم المجاورون له عند يمينه ، على منابر من نور . وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدرى الكونى . وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه . كما في الحديث الصحيح^(٢) : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك . فقضاؤه

(١) [١٦ / النحل / ٧٣ و ٧٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٩١

من الجزء الأول (طبعة الحلي) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

هو أمره السكوني^(١) (إِنَّمَا أَمْرُهُ - إِذْ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان في المقتضى المقدّر ما هو جور وظلم . فالقضاء غير المقتضى . والقدر غير المقدّر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب^(٢) : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَخِذِكُمْ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقوله (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَخِذِكُمْ بِنَاصِيَتِهَا) نظير قوله (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ) وقوله (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) نظير قوله (عَدْلٌ فِي قَضَائِكُمْ) . فالأول ملكه . والثاني حمده . وهو سبحانه له الملك وله الحمد . وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق في أقواله وأفعاله . فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً به ولا يأخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة . فإن كونه على صراط مستقيم يأتى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبري^(٣) : وقوله : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول : إن ربى على طريق الحق يجازى المحسن من خلقه بإحسانه والسيء بإساءته . لا يظلم أحداً منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبيل بن أبي نجيح عنه (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قال : الحق . وكذلك رواه ابن جريج عنه .

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء الثاني عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقالت فرقة : هي مثل قوله^(١) (إِنَّ رَبَّكَ لَبِأُكْبَرُ مَرَّادٍ) وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازة المحسن بإحسانه والسيء بإساءته .

وقالت فرقة : في الكلام حذف تقديره : إن ربي يحكمكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها ، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر . وقد فرق سبحانه بين كونه أمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم . وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مراد العباد والأمر كلها إلى الله لا يفوته شيء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شيء تحت قدرته وقهره في ملكه وقبضته . وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية . وقد فرق شعيب بين قوله^(٢) : (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) وبين قوله^(٣) : (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهما معنيان مستقلان . فالتقول قول مجاهد ، وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه . وقال جرير^(٣) يمدح عمر بن عبد العزيز :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ إِذَا عَوَّجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٍ
وقد قال تعالى^(٤) : (مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

(١) [١٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) من قصيدة مطلعها :

أَلْمُتِ وَمَارَقَقْتِ بَأْنَ تَلْوَمِي
وقلتِ مَقَالَةَ الْخَطْلِ الظَّلُومِ
يمدح بها هشام بن عبد الملك .

انظر الصفحة رقم ٥٠٧ من الديوان . (٤) [٦ / الأنعام / ٣٩] .

وإذا كان سبحانه هو الذى جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم فى أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذى هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكأله ومجده من قول الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفى الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم ما فى هذا القول وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الآية إما جواب لاستعجابهم ما يوعدون ، أو لاستبطائهم الساعة . أو لبيان كماله فى العلم والقدرة ، تعريضاً بأن معبوداتهم عربية منهم . فأشار إلى الأول بقوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو غيبهما هو يوم القيامة . فإن علمه غائب عن أهلها ، لم يطلع عليه أحد منهم ، وأشار إلى الثانى بقوله (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) و (الساعة) الوقت الذى تقوم فيه القيامة . و (اللمح) النظر بسرعة . أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) من ذلك ، أى أسرع زماناً . بأن يقع فى بعض من زمانه . وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لا يخفى . وقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل له ، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لا تنتهى ، وأن ما يذكر بعض منها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٩] (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ،

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا » عطف على قوله تعالى :

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وقوله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ) وقوله تعالى (وَاللَّهُ

فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) أفاده أبو السعود . و (شَيْئًا) منصوب على المصدرية .

أو مفعول (تعلمون) والنفي منصب عليه . أى لا تعلمون شيئاً أصلاً من حق

المنعم وغيره .

« وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ » أى فتدركون به الأصوات « وَالْأَبْصَرَ » فتحسون الرئيات

« وَالْأَفْئِدَةَ » أى العقول « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد

والاعتبار بها والمشى على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته في خلقه الطير بقوله « أَلَمْ

يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ » أى مذلات « فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » أى

ما يمسكهن في الجوّ من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل ، إلا هو سبحانه . « إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الحجة الغزاليّ في الحكمة في خلق المخلوقات ، في حكمة

الطير ، في هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله؛ أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران . ولم يخلق

فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه . فقسم لكل عضو منه

مايناسبه . فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك ، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به .

تخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه . وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغنى به عن الريش في الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة . لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء . فلو كسيت ساقه بريش لتضرر ببلله وتلويثه . فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى في البرارى ولا في البحائر حتى ينفكب على صدره . وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ، ليزداد مطلبه عليه سهولة . ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائرته ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يحرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يعتدى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، ما هي في العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله . وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبتته وأتقنه ، لكثرة دعاء الحاجة إليه . وحمل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له . وجعل في ريشه من الحكمة ، أن البليل لا يفسده والأدران لا توسخه . فإن أصابه ماء كان أيسر انقراض

يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته . وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه . فلولا له لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً . فكان له بمنزل رَجُل السفينة الذي يمدل بها سيرها . وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يتلعه بلعاً بلا مضغ ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدينة . وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحب العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير . ثم إنه خلقه ببيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوق عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة؟ انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيته ، بقوله ، عطفاً على ما مرّ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمتَّعًا إِلَىٰ حِينٍ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا » أى موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليه لما لا يحصى من وجوه منافعكم « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا » أى بُيُوتًا أخرى وهى الخيام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف

والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها .
 أو الجلود مجاز عن المجموع « تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ » أى تجدونها
 خفيفة الحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم فى مراحلكم . لا يثقل عليكم ضربها . أو هى
 خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر جميعاً . قيل : والأول أولى . لأن ظهور المنة فى خفها
 إنما يتحقق فى حال السفر . وأما المستوطن فغير مثقل « وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا »
 أى وجعل لكم من أصواف الضأنِ وأوبار الإبل وأشعار المعز « أَثْنًا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ »
 الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتاع ما يتخذ للتجارة . وقيل هما بمعنى .
 ومعنى (إِلَىٰ حِينٍ) أى إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويفنى . أو إلى
 أن تموتوا .

تنبیه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت
 فى الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا
 فى (الإكيل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
 وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ،
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ » أى من الشجر والجبال والأبنية وغيرها « ظِلَالًا » أى
 أفياء تستظلون بها من حر الشمس « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا » أى بيوتاً ومعاقل
 وحصوناً تستترون بها « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » جمع سربال وهو كل

ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها . وإنما خص الحرّ ، اكتفاءً بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أو لأن الوقاية من الحرّ أهم عند العرب ، لشدته بأكثر بلادهم ، وخصوصاً قطّان الحجاز وهم الأصل في هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله ^(١) : (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) وهو وجه الاختصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه « وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ » كالدرع من الحديد والزرذ ونحوها . التي يتقى بها سلاح العدو في الحرب « كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ » أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنسية والآفاقية ، فتسلموا وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إما لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل . وقرئ (تَسْلِمُونَ) بفتح اللام أى من العذاب أو الجراح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ)

[٨٣] (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)

[٨٤] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا لَهُمْ

يُسْتَعْتَبُونَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى بمد هذا البيان وهذا الامتنان « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ » أى التي عدت ، وأنها بخلقها « ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا » أى بعبادتهم غير النعم بها وقولهم هى من الله ، ولكنها بشفاعة آلهتنا « وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » .

(١) [١٦ / النحل / ٥]

ثم أخبر تعالى عن شأنهم في معادهم بقوله :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيما بلغها « ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله (١) : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » (وَلَا لَهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى لا يطلب منهم العتبي . أى إزالة عتب ربهم وغضبه . (والعتبي) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب . يقال : استعتبه أعطاه العتبي بالرجوع إلى مسرته . والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك . والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

[٨٦] (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ

كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

« وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يؤخرون « وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ » يعنى أوثانهم التى عبدوها « قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ » أى أربابا أوعبدوها « فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » أى أجابوهم بالتكذيب فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك . أو بالتكذيب فى دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام . وظنوا

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٥ و ٣٦] .

أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم . فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام . وهذه الآية كقوله تعالى^(١) : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفُلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقال تعالى^(٢) (وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّلَامَ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَالْقَوَا » أى وألقى الذين ظلموا « إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّلَامَ » أى الاستسلام لحكمه

بعد إبانهم فى الدنيا « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

أى من أن لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى^(٣) : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) والجواب : (كما قال القاشانى) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار فى الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة سكرية النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهى ، للاحتجاب بالحجب الغليظة والنواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تسكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه ، والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شراشر النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لرقعة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطقى نور استعدادهم .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٦٥] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٢ و٨١] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكشف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

[١٩] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » أى يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصددهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى^(١) (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ) وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى^(٢) : (لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وهو نبيهم « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » أى اذ ذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والقيام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من تمنى كونهم تراباً ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك فى آية النساء فى قوله تعالى^(٣) (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا* يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ

(١) [٦ / الأنعام / ٢٦] .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٤ / النساء / ٤١ و٤٢] .

لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) . وقوله تعالى «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» مستأنف . أو حال بتقدير (قد) . قال الرازى : وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، أنه تعالى لما قال (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ) بَيَّنَّ أنه أراح علمهم فيما كلفوا . فلا حجة لهم ولا معذرة .

وقال ابن كثير في وجه ذلك : إن المراد ، والله أعلم ، إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك عن ذلك يوم القيامة (فَانزَّلْنَا الَّذِينَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(١) ، (فَوَرَّيكَ لَنَسَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢) ، (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ . فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ)^(٣) وقال تعالى^(٤) (إِنْ أَلَّدَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن . انتهى .

و (التبيان) من المصادر التى بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه . أى تبيناً لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سياتى وكل حلال وحرام ، وما الناس محتاجون إليه فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وَهُدًى) أى هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله (وَرَحْمَةً) أى له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . وقوله تعالى :

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . (٤) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ « أى فيما نزله تبياناً لكل شيء » بِالْعَدْلِ « وهو القسط والتسوية فى الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذى حق إلى حقه » وَالْإِحْسَانِ « أى التفضل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه » وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ « أى إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه » وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ « أى عما فحش من الذنوب وأفرط قبجها كالزنى » وَالْمُنْكَرِ « أى كل ما أنكره الشرع » وَالْبَغْيِ « أى العدوان على الناس » يَعِظُكُمْ « أى بما يأمركم وينهاكم » لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ « أى تَتَعَبَّرُونَ بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

روى ابن جرير عن ابن مسعود^(١) : إن أجمع آية فى القرآن ، لخير وشر ، هذه الآية .
وروى الإمام أحمد^(٢) : أن عثمان بن مظعون مرّ على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته . فكسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . فجلس . ثم أوحى إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما تليت الآية على أكنم بن صبيق قال لقومه^(٣) : إني أراه يأمر بكمارم الأخلاق وينهى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣١٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٢٩٢٢ (طبعة المعارف) وانظر نص الحديث فإن فيه فوائد .

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٨٢ من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير (طبعة ١٩٣٧) .

عن ملائمتها . فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناناً . وعن عكرمة ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي ! أعد عليّ . فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

وقد نقل أن بنى أمية كانوا يسبون علياً ، كرم الله وجهه ، في خطبهم . فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم ما أثره .

قال الفاسر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغى فيها ، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعلّ باغ . حيث يقول عليه الصلاة والسلام^(١) لعمار (وكان من حزب عليّ) : تقتلك الفئة الباغية . فقتل مع عليّ يوم صفين . انتهى . ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوى القربى ، وكونها أجمع آية لاندراج ما ذكر فيها . والله أعلم .

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالمعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)
 « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

(١) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٣ - باب التعاون في بناء المسجد ،

حديث رقم ٢٩٥ .

وأخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ٧٠ (طبعتنا) .

روى ابن جرير عن بريدة قال^(١) : نزلت في بيعة النبي ﷺ . كان من أسلم بايع النبي على الإسلام ، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان . أى لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام . وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره . كاللبيعة على الإسلام . وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحلف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية . و(التوكيد والتأكيد) ، لغتان فصيحتان . والأصل الواو ، والهمزة بدل منها . والواو في قوله (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) للحال من فاعل (تَنْقُضُوا) أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى (كَفِيلًا) شهيداً رقيباً . و(الجعل) مجاز . فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبقى (الكفيل) على ظاهره ، وجعل تمثيلاً لعدم تخصصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال (من ظلم فقد أقام كفيلاً بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب - لكان معنى بليغاً جداً . وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

في الآية الحث على البرّ في الأيمان . وجلّي أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى . وأما فيما عدا ذلك ، فالخير في نقضها . وقد دل عليه ما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيحين^(٢) أنه قال : إني ، والله ! إن شاء الله ، لأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها . (وفي رواية : وكفرت عن يميني) . فالحديث في معنى ، والآية في معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٢٧ - كتاب الأيمان ، حديث ٧-١٠ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَصَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ
 آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ، إِنْهَا يَبْلُوكُمْ
 اللَّهُ بِهِ وَكَيِّدِينَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَصَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا » تأكيد لوجوب الوفاء
 وتحريم النقص. أى لا تكونوا في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها، بعد أن أحكمتها
 وأبرمتها، فجعلته أنكاثًا، أى أنقاضًا، جنونًا منها وحقًا .
 ففي التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكتمل، داخل في زمرة النساء.
 بل في أدناهن، وهى الخرقاء .

وقوله تعالى « تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » حال من الضمير في (ولا تكونوا)
 أى لا تكونوا مشابهين لامرأة هذا شأنها، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة بينكم
 « أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ » أى سبب أن تكون جماعة، كقريش، هى أزيد عددًا
 وأوفر مالًا من جماعة كالمؤمنين « إِنْهَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ » أى يعاملكم معاملة من يختبركم
 بكونهم أربى، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدت من
 أيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم، وقلة المؤمنين
 وفقيرهم وضعفهم؟ « وَكَيِّدِينَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى فيتميز
 المحق من المبطل، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة
 ملة الإسلام .

تنبية :

قال أبو على الزجاجي، من أئمة الشافعية : فى هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا،
 من إبطال الدور . لأن الله تعالى ذم من أعاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه . نقله فى
 (الإكليل) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنيفة مسلمة « وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لاستفسار وتفهم . وهو المنفى فى غير هذه الآية . أو فى موقف دون موقف كما مر .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » تصریح بالنهاى عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً ، لأخذه فيما تقدم قيماً للمنهى عنه ، تأكيذاً عليهم ومبالغة فى قبح المنهى « فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا » أى فتزل أقدامكم عن محجة الحق ، بعد رسوخها فيه « وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ » أى ما يسوءكم فى الدنيا « بِمَا صَدَدْتُمْ » أى بصددكم عن الوفاء ، أو بصددكم غيركم « عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى فى الآخرة .

لطيفة :

تنكير (قدم) للإيدان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ . وأشار فى (البحر) إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلاحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فيفرد ماله كقوله (١) : (وَأَعْتَدْتُ

لَهُنَّ مُتَّكَئًا) أى لكل واحدة منهن متكئًا . ولما كان المعنى : لا يفعل هذا كل واحد منكم ، أفرد (قَدَمٌ) مراعاةً لهذا المعنى . ثم قال (وَتَدُقُّونَ) مراعاةً للفظ الجمع . قال الشهاب : هذا توجيه للإفراد من جهة العربية ، فلا ينافي النكتة الأولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ مِمَّنَّا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ مِمَّنَّا قَلِيلًا » أى لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم ، إن ارتدوا « إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى من إظهاركم فى الدنيا وإثابتكم فى الآخرة « إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من ذوى العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » تليل للخيرية بطريق الاستئناف . أى ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص . فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناهٍ ، وما عنده تعالى من ثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ » أى على المشركين ومشاق الإسلام « بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحا . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنثى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحيمه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايى : أى فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعساره . إذ يرضيه الله بقسمته فيقتنه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه ؛ إذ يزداد حرصا وخوف فوات . ويجزون بالأحسن فى الآخرة . فلا يقال لهم : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا . بل يكمل جزاء أعمالهم الأذى بحيث يلحق بالأعلى . انتهى . وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها تلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة فى الموعد والرضا بالقضاء . وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد . والتنور بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها . هذا فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

[٩٩] (إِنَّهُ وَ لَيْسَ لَهُ و سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[١٠٠] (إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ و عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ و وَالَّذِينَ هُمْ بِهٖ مُّشْرِكُونَ)

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ وَ لَيْسَ لَهُ و سُلْطٰنٌ

عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلِّطْنَاهُ وَعَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .»

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه . ويفسد القلوب بدسائسه . أمر ﷺ بأن يستعيز بالله ويلتجىء إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته . لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه . وقد بينت آية (١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَأَيْتَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أن هذه عادة الشيطان ، إثر ما يتلوه كل نبي على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان ، ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادة ، ولها من الأثر ما لها ، احتجج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه .

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أى تسلط وولاية من أوليائه التبعية خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على المكروه ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له عليهم سلطان . فهم يصادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه . لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكروه ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة . أى للمعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالسكواكب . والضمير في (به) لربهم والباء للتعدي . أول للشيطان والباء للسببية . أى بسببه وغروره ووسوسته . ورجح بأحد الضمائر فيه . وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه في عبادة الله تعالى ، وكاه مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] .

تنبيه :

في الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم بوجوبها لظاهر الأمر . وسرها في غيره ﷺ التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٠٢] (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَهُدَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَهُدَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » .

التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى . والأكثر على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكماً بآية أخرى غيرها ، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) من نسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرها ، من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى تقسية علمية . وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطري . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ، لأن يحاطب عقله ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يثوت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبي أمي لم يقرأ ولم

يكتب . وكون الكتاب بين الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتى العلم ورزق الفهم . وهذا التأويل الثانى يرجحه على الأول ، أن السورة مكية . وليس فى المسكى منسوخ بالمعنى الذى يريدونه . وللمبحث تفصيل فى موضع آخر . وقد أشرنا إلى ذلك فى آيتين من سورة البقرة فى قوله تعالى (١) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا) الخ ، وقوله تعالى (٢) (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ) والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ، ردّاً للحق ، وعناداً للهدى ، وتولياً للشيطان ، وتعبداً لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهى ، كما قال : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) واعتراض قوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) لتوبيخ الكفرة والتنبية على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق فى شأنه بقوله (قُلْ نَزَّلَهُ) أى القرآن المدلول عليه بالآية (رُوحُ الْقُدُسِ) يعنى جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر . كما يقال (حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق) والمراد الروح القدس وحاتم الجواد وزيد الخير والخبر السيء والرجل الصادق . وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة فى كثرة ملابسته له واختصاصه به . والقدس المطهر من الأدناس البشرية . وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه فى قوله تعالى (مِنْ رَبِّكَ) للدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية . وقوله (بِالْحَقِّ) أى متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التى اقتضاها دور عصره ، وقوله تعالى (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفى قوله تعالى : (وَهَدَىٰ وَبُشِّرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) تعريض بمحصول أضرار هذه الصفات لغيرهم .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» .

يخبر تعالى عن المشركين في قولهم غير مانقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذي يتلوه من القرآن، بشر . يعنون رجلاً أعجمياً كان بين أظهرهم يقرأ في الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح باسمه للإيدان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى ووضح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بين . وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين . ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمي أن يدوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلاً أن ينطق به ، فضلاً أن يكون معاملاً له ! وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٠٥] (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ

مُمُّ الْكٰذِبُونَ)

«إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» تهديد لهم على كفرهم بالقرآن ، بعدما أمارت شبهتهم ورد طعنهم فيه . وقوله تعالى : «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» رد لقولهم إنما أنت مفتر . وقلب للأمر عليهم ، ببيان

أنهم هم المفترون لاهو . يعنى إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يخاف عقاباً برده عنه ؛ وقوله تعالى « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰذِبُونَ » إشارة إلى الذين لا يؤمنون ، ويدخل فيهم قريش دخولاً أولياً . أى الكاذبون فى الحقيقة ونفس الأمر ، أو الكاملون فيه . لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطمع فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى مافى الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه . وقد كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً . معروفاً بالصدق فى قومه ، لا يشك فى ذلك أحد منهم . بحيث لا يدعى بينهم إلا : (الأمين محمد) . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم^(١) أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

فى هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأخش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة (إنمأ) للحصر . والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد فى النهاية . وروى^(٢) أن النبي ﷺ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازى . وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم بن

نافع ، والحديث طويل ينبغى الوقوف عليه .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ - كتاب ما يكره من الكلام ، حديث ١٩

(طبعتمنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١٠٧] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[١٠٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ آبْصَارُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

[١٠٩] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ)

« مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ آبْصَارُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ » .

لما بين تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، في الحاماة عن الدين ، تأثره ببيان مالردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد، بهذه الآيات. واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله . فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإبلام قوى وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرح بالكفر صدرأ أى طاب به نفساً واعتقده ، استحباباً للحياة الدنيا الفانية ، أى إيثارا لها على الآخرة الباقية، فذاك الذى له

من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولاً . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم ينفتح لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجلّى ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها !

قال الرازى : ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليسكون كالتاجر الذى يشتري بطاعته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسارته . فلهذا قال : (لَآ جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ) أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفدوا فى تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شيء إلا فى وبال التحسرات .

تنبيهات :

الأول : (مَنْ) فى قوله تعالى (مَنْ كَفَرَ) موصول مبتدأ خبره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) وقوله (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ) استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله (وَلَسَكِنَّ مِنْ شَرَحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا) رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبين لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غيره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثانى : استدل بالآية على أن السكره غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلطف بكلمة

الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفي طلاق المكره وعتاقه ، وكل قول أو فعل صدر منه . إلا ما استثني . أفاده السيوطي في (الإكليل) .

الثالث : روى عن ابن عباس (١) ؛ أنها نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بالنبي ﷺ . فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذراً . قال ابن جرير (٢) : أخذ المشركون عماراً فعذّبوه . حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان . قال ﷺ : إن عادوا فمدّ .

وقال ابن إسحاق (٣) : إن المشركين عذّوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرّ . يفتنونهم عن دينهم . فنههم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه . ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضى الله عنه عبداً لبعض بني جُمَح . يخرجهم أمية بن خلف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول (وهو في ذلك البلاء) : أحدٌ . أحدٌ . حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، رضى الله عنهم ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة . فيمرّ بهم رسول الله ﷺ . فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلها وهي تآبى إلا الإسلام .

(١) انظر تفسير الطبري ، الصفحة رقم ١٨١ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٣٣٩ من الجزء

الأول (طبعة الحلبي) .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجمل ليربهم فيقولون له : هذا الجمل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم ، مما يبلغون من جهده .

وقد ذكر ابن هشام^(١) في (السيرة) في بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب في هذا الباب ، فانظروا .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالى ، إبقاء لمهجته . ويجوز له أن يأبى . كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، وهو يقول : أحدٌ . أحدٌ . ويقول : والله ! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقاتمتها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى ، لما قال له مسيلة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى ، أحد الصحابة ؛ أنه أسرته الروم . فجاءوا به إلى ملكهم . فقال له : تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذا أقتلك . فقال : أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأُتزل .

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٣٣٩ من الجزء الأول

(طبعة الحلبيّ) .

ثم أمر بقِدْرِ فَأَحْمِيت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع بالبركة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة . تلقى في هذا القدر الساعة . فأحبيت أن يكون لي ؛ بعدد كل شعرة في جسدي ، نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي بعض الروايات ؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل إليه بنجر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما هو فقد حلّ لي . ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين . قال ، فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . وأنا أبداً . فقام فقبّل رأسه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاقّ الجهاد . أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة ، أى إجابتهم إليها ، (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فيغفر لهم ما فرط منهم . ويرحمهم بالجزاء الحسن .

والجاء في قوله (لِلَّذِينَ) متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر (إِنَّ) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله (هَاجَرُوا)

من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة . ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما شمل قوله (جَاهِدُوا) في بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا في سبيل الله . ولأجل هذا الاحتمال في الفعلين ، قيل : الآية مدنية ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) ، واليوم يوم القيامة . ومعنى (تُجَادِلُ) أى تخاصم وتسعى في خلاصها . لا يهتمها إلا ذاتها وشأنها . ولا يعنى عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شئ « مَّا » « وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ » أى من خير وشر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » في ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[١١٣] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * » وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » اعلم أنه لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة ، أُنذِرهم بنقمتهم في الدنيا أيضا بالجوع والخوف . ومعنى

قوله تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) أى جعل القرية التى هذه حالها مَثَلًا لكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرتهم النعمة . فسكفروا وتولوا . فأنزل الله بهم نعمته . فيدخل فيهم أهل مكة دخولًا أوليًا ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدره بهذه الصفة غير معينة ، إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن (ضَرَبَ) معنى (جعل) و (مَثَلًا) مفعول ثانٍ و (قَرْيَةً) مفعول أول .

قال أبو السعود : وتأخير (قرية) مع كونها مفعولاً أول ، لثلاث محمول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها . إذ التأخير عن السكل محلّ بتجاذب أطراف العظم وتجاوزها . ولأن تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقباً لوروده ، وتشوقاً إليه . لاسيما إذا كان فى المقدم ما يدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل . فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن . والمراد بالقرية أهلها مجازا ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها (ءَامِنَةٌ مُّطْمَئِنَّةٌ) أنه لا يزعمها خوف ، و (الرغد) الواسع . و (الأنعم) جمع نعمة .

وفى قوله تعالى : (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) شبه أثر الجوع والخوف وضررها المحيط بهم ، باللباس الغاشى للابس . فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذاعة المستعارة ، لمطلق الإيصال ، المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها فى ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة ، جرت مجرى الحقيقة .

قال ابن كثير : هذا مثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف . كما قال تعالى (١) (وَقَالُوا إِن نَّبِّئُكَ أَلْهُدَى مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَعْرَتٌ كُلِّ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٧] .

شَيْءٍ رَزَقًا مِّن لَّدُنَّا) وهكذا قال ههنا و(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أى هَنِئًا سَهْلًا (مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) أى جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم . كما قال تعالى (١) : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصَوِّفُونَهَا وَبِتُسِ الْقُرَارِ) ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافيهما فقال : (فَأَذِقْنَا لِلَّهِ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها من كل مكان . وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافة . فدعا (٢) عليهم بسبع كسبع يوسف . فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم . فأكلوا العلهز (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) . وقوله (وَالْخَوْفِ) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه . وجعل كل ما لهم في دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيمهم وبنعيمهم وتكذيبهم الرسول ﷺ . الذى بعثه الله فيهم منهم . وامتن به عليهم فى قوله (٣) : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية ، وقوله تعالى (٤) : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا) ، وقوله (٥) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) إلى قوله : (وَلَا تَكْفُرُونِ) وكأ أنه انعكس على الكافرين حالهم نغافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا . ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأتمهم . انتهى .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩] . (٢) أخرجه البخارى ، تعليقا ، فى : ٨٠ كتاب

الدعوات ، ٥٨ - باب الدعاء على المشركين ، عن ابن مسعود .

(٣) [٣ آل عمران / ١٦٤] . (٤) [٦٥ الطلاق / ١٠] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٥١] .

ثم بين تعالى ضلال المشركين في تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ، مفصلاً ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرّمونه بأهوائهم ، وهو مأذون بأكله ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَعْبُدُونَ)

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى من الحرث والأنعام « حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَعْبُدُونَ » أى تريدون عبادته فاستحلّوها ، فإن عبادته فى تحليلها . واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِنَعِيرِ اللَّهِ
بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِنَعِيرِ اللَّهِ بِهِ » أى ذبح على اسم غيره تعالى : « فَمَنْ اضْطُرَّ » أى أجهد إلى ما حرم الله « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » أى متعمد قدر الضرورة وسدّ الرمي « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى فلا يؤاخذُهُ بِذَلِكَ .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية . فأغنى إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم ، فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها ، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتُكُمْ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[١١٧] (مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتُكُمْ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى لا تقولوا الكذب لما تصفه السنتكم من البهائم ، بالحل والحرمه فى قولكم (ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله . ف (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله : (هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ) بدل من (الكذب) واللام صلة للقول . كما يقال : لا تقل للنبيذ إنه حلال ، أى فى شأنه وحقه . فهى للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لاحكم مصمم عليه . أو (هَذَا حَلَلٌ) مفعول (تقولوا) و (الكذب) مفعول (تصف) واللام فى (لِمَا تَصِفُ) تعليمية و (ما) مصدرية . ومعنى تصف تذكر . وقوله : (لَتَفْتَرُوا) بدل من التعليل الأول . أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف السنتكم الكذب ، أى لأجل قول تفتق به السنتكم من غير حجة . وليس بتكرار مع قوله : (لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ) لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم لترنهم على الكذب ، اجترأوا على الكذب على الله ، فنسبوا ما حللوه وحرموه إليه . وعلى هذا الوجه - كون الكذب مفعول (تصف) - فى وصف السنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، لجملة عين الكذب . ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ،

حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها ، ذ (نصف) بمعنى توضح . فهو بمنزلة الحدِّ والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب . فالتعريف في الكذبِ للجنس . كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته . وعليه قول المعرّي (١) :

سَرَى بَرَقُ الْمَرْوَةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

ونحوه (نهاره صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص ، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه . و (وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق ، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه ، الذي يعرف منه . حتى كأنه يصفه ويعرفه ، كقوله :
أضحتُ يمينك من جودٍ مصورةً لا بل يمينك منها صورُ الجودِ
فهو من الإسناد المجازي . أو نقول : إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال . فهو استعارة مكنية . كأنه يقول : ما بي هو الجمال بعينه . ومثله وارد في كلام العرب والمعجم . هذا زبدة ما في (شروح الكشاف) .

وما في الآية أبلغ من المثال المذكور ، لما سمعت . أفاده في (العناية) . واللام في (لَتَفْتَرُوا) لام الصيرة والعاقبة المستعارة من التعليلية . إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا ، بل لأغراض آخر يترتب عليها ما ذكر . وجوز كونها تعليلية ، وقصد هم لذلك غير بعيد . وفي قوله تعالى :
(إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ...) الآية ، وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يمتد به لافي الدنيا ولا في الآخرة . أما في الدنيا ، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب . وأما في الآخرة فلمهم عذاب أليم ، كما قال (٢) : (نُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) .
تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٣٨٢١ (هذا الجزء) .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٤] .

أو حلال شيئاً مما حرم الله . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيته .
أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل . فلم أزل أخاف
الفتيا إلى يومى هذا .

قال في (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى
بخلاف ما في كتاب الله ، أو في سنة رسول الله ﷺ . كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأى المقدمين
له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن
كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول
الله له : كذبت .

قال ابن العربي : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام في المسائل
الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال في المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا
وكذا ، ونحو ذلك .

ولما ذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ ، بين ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم
مما ليس فيه أيضاً شيء مما حرمه المشركون ، تحقيقاً لافتراءهم بأن ما حظروه لا سند له في
شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١١٩] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » يعنى اليهود « حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ » أى

في سورة الأنعام في قوله تعالى (١): (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا...) الآية «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ» أي فيها حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أي فاستحقوا ذلك . كقوله (٢)
 (فَيَظْلِمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) وقد سلف لنا ما ذكروه في تفسيرها مما يجي هنا ، فتذكر . قالوا : في الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلا ما فيه مضرة لها . وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود . ثم بين تعالى عظيم فضله في قبول توبة من تاب من العصاة بقوله : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا» أي العمل فيما بينهم وبين ربهم «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا» أي التوبة «لَعَفُورٌ رَحِيمٌ» ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاه لهم إلى سلوك طريقته في التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لِقَامِهِ ، مما كانوا يفترون عليه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَاَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[١٢١] (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً» أي إماما يقتدى به ، كقوله تعالى (٣) : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أو كان وحده أمةً من الأمم ، لاستجاعه كالات لا توجد في غيره «قَانِتًا لِلَّهِ» أي خاشعاً مطيعاً له ، قائماً بما أمره «حَنِيفًا» أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ» أي قائماً بشكر نعم الله عليه ، مستعملاً لها على

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

الوجه الذى ينبغى ، كقوله تعالى^(١) (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به « أَجَبْتَهُ » أى اختاره واصطفاه للنبوّة « وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، على شرع مرضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَإِيتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)
 [١٢٣] (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَءَايَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » أى من الذكر الجميل . كما قال^(٢) (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال^(٣) (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) ومن تمتيعه بالخطوظ ليقوى على القيام بحقوق العبودية « وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ » أى فى عالم الأرواح « لَمِنَ الصَّالِحِينَ » أى المتمكنين فى مقام الاستقامة ، بإيفاء كل ذى حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا فى الجنة .

« ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى بمد هذه الكرامات والحسنات التى أعطيناها إياها فى الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، باتباعك إياه فى التوحيد وأصول الدين التى لا تتغير فى الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها . لافى فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها . فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانى .
 وفى (الإكليل) استدلل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] . (٢) [١٩ / صميم / ٥٠] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٨ و ١٠٩] .

لطيفة :

قال الزحمرى : فى (ثم) هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، وإجلال محله ، والإيدان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم ﷺ من الكرامة ، وأجل ما أوتى من النعمة ، اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثبت الله عليه بها .

قال الناصر : وإنما تفيد ذلك (ثم) لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه فى الزمان . ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأسمى محلاً مما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبى ﷺ الأسمى ، الذى هو سيد البشر ، متبع لمة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، متلوّاً أمره بذلك فى القرآن العظيم . فى ذلك تعظيم لها جميعاً . لكن نصيب النبى ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر . على ما مهدناه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » يعنى اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فيه واحتالوا له .

قال القاشانى : أى ما فرض عليك ، إنما فرض عليهم . فلا يلزمك اتباع موسى فى ذلك ، بل اتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى بالمجازاة على اختلافهم ، يعنى إفسادهم وزيفهم عن طريق الحق . ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » أى العبر اللطيفة والوقائع الخفيفة ، ليحذروا بأسه تعالى « وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة ، من الرفق واللين وحسن الخطاب ، من غير عنف . فإن ذلك أبلغ في تسكين لهم . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهب نفسك ، على مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ ، حسرات ، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ . لأنه هو أعلم بمن يبق على الضلال ومن يهتدى إليه . فيجازى كلا منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلي . فما شرعه لك في الدعوة ، هو الذى تقتضيه الحكمة . فإنه كاف في هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلّ قوله تعالى : (وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) على الحث على الإنصاف فى المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ)

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ»
 أى الزموا سيرة العدالة، لا تجاوزوها. فإنها أقل درجات كالكلم. فإن كان لكم قدم في الفتوة،
 وعرق راسخ في الفضل والكرم والروءة ، فتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ،
 وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه (أَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) ألا تراه
 كيف أكده بالقسم واللام في جوابه ، وترك المضمرة إلى المظهر حيث ما قال (أَهُوَ خَيْرٌ
 لَكُمْ) بل قال (أَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر .
 فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتسكدر بظهور
 صفة النفس. وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه . فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس .
 وتنكسر سورة غضبه فيصلح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسيء
 بسورة الغضب ، بأكثر مما جنى عليكم ، فتظلموا ، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها .
 فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجاني . أفاده القاشاني .

تنبيهات :

الأول : في (الإكيل) : قال ابن العربي : في الآية جواز المائلة في القصاص . خلافاً
 لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسئلة الظفر . كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن
 سيرين والنخعي : أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النخعي : سئل عن الرجل يخون الرجل
 ثم يقع له في يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية .
 ولفظ ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصرى وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل في القصاص والمائلة في استيفاء الحق .

الثانى - قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أخذ ، حين قتل حمزة رضى الله عنه ومُثل به . فقال رسول الله ﷺ : لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسم . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولاً عن أبي هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه ، حين استشهد . فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . وقد مُثل به . فقال : رحمة الله عليك . إن كنت لَمَا علمتُ ، لو صولاً للرحم فعولاً للخيرات . والله لولا حزن من بعدك عليك ، لسرتنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع (أو كلمة نحوها) . أما والله ! على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله ﷺ . يعنى عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف . لأن صالحاً (أحد رواته) هو ابن بشير المرى ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخارى : هو منكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أبي بن كعب ، قال : لما كان يوم أُحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لاتعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله ﷺ قد آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً . ناساً ستمهم فنزلت الآية . فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب .

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول - في مقدمة التفسير - يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة - ولا إلى ردّ ما روى من هذه الآثار . إذ به يتضح عدم التناقض . والتقاء الآثار مع الآية . فتذكره .

الثالث : قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن . فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله تعالى ^(١) (وَجَزَاءُ وَا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) ثم قال ^(٢) (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) الآية . وقال ^(٣) (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) ثم قال ^(٤) (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) انتهى .

ثم أكد تعالى الأمر بالصبر ، ليقوى الثبات والاحتمال ، لسكل ما يلاقيه في سبيل الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

[١٢٨] (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

« وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » أي بمعونته وتوفيقه « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أي على الكافرين ، أي على كفرهم وعدم هدايتهم « وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أي في ضيق صدر مما يمكرون من فنون المكائد « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .
تعليل لما قبله . أي فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم . لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلؤهم ويظهرهم على أعدائهم . قال ابن كثير :

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٥] .

هذه معية خاصة كقوله تعالى^(١) (إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتُمْ مَعَكُمْ فَتَبَتُّوْا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وقوله لموسى وهرون^(٢) (لَا تَخَافَا، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى^(٣) (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) وقوله^(٤) (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا).

قال أبو السعود: تكرير الموصول للإيدان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداها تنمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث. كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين، وهو عليه الصلاة والسلام داخل في زميرتهم دخولاً أولياً. وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه. عبر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتم الجميلين . وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

اصبر نكن بك صابرينَ فَإِنَّمَا صبرُ الرعيةِ عندَ صبرِ الرأسِ

وبعد هذا البيت :

خيرٌ من العباسِ أجركُ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

قال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتيه .

وعن هَرَمِ بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ،

فلا مال لي . وأوصيكم بنحوائيم سورة النحل ...

(١) [٨ / الأتقال / ١٢] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٤) [٥٨ / المجادلة / ٧] .